براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية



إن فحص القرآن الكريم، بمعنى تدبره، يوشك أن يعلن عن ثلاثة إجراءات كلية جامعة قامت بعبء تحقيق الاستيعاب، والاستجابة إلى حقيقة تزاحم المعاني فيه. وهي الإجراءات التي تتلخص في ما يلي:

أولا: براعة استثمار الظاهرة الصوتية في الكتاب العزيز.

ثانيا: براعة الاستثمار المعجمي.

ثالثا: براعة استثمار التنوع القرائي (على مستوى البنية والتركيب).

وسنحاول أن نشرح كيف وظف القرآن الكريم هذه الإجراءات ليعبر إلى الحقيقة التي تحيط بأمر معانيه، وتزاحمها، تعاطيا مع الطاقة الاكتنازية المركوزة في تربته، أي في لغته، وهي الطاقة التي تهب كل جيل نصيبه من الثروة أو الكنز إذا أحسن التفتيش والبحث فيه.

استثمار الظاهرة الصوتية

يعد القرآن الكريم في أول النظر إليه ظاهرة صوتية، وهو حكم يتأسس على رعاية جانبين:

أ - تنزله مقروءا، وتنوع الأمر بهذا بدرجات، واعتبار ذلك تعبدا في حد ذاته.

ب - اعتماده المكون الصوتي في نظمه.

ولعل الوقف بما أنه ظاهرة صوتية

في أحد جوانبها يمكن أن يبرهن على كيفية استثماره، ليكون وسيلة ناجحة للترجمة عن تزاحم المعاني، وهو الأمر الذي جعل الوقف في مجمله غير لازم، بما يعني أنه تابع في بعض النظر للفهم، يحسن بحسن ما ينتج من معنى، ويتراجع الحكم بحسنه بتراجع الحكم بالحسن على ما ينتج عنه.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد مختلفا فيه من قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ..﴾ (القصص:٢٥)، إذ يروي أصحاب الوقف عدم تفضيل الوقف على «تمشي»، ويعللون ذلك بأن مراد الله تعالى أن تأتي المرأة متسترة، ولا يفضلون البدء بـ «على استحياء قالت» حتى لا يخلو المشي من التعلق بمعنى الاستحياء. ولعلي لا أبعد إن قررت أنه من الأولى الوصل، بمعنى عدم الوقف على «تمشي» ولا على «على استحياء» وقراءة الآية كاملة، فيتعلق الاستحياء بحالها جميعا، مشيا وقولا، إذ الوقف على «تمشي» يخلص الاستحياء للقول، والوقف على «على استحياء» يخلص الاستحياء للمشي ويخلي القول منه، ومراد الله سبحانه استصحاب الاستحياء للمشي والقول جميعا.

وقد أنتجت رعاية هذه الظاهرة في الذكر الحكيم آثارا عميقة في معانيه، وما يخرج منه من أحكام عقدية، وعملية: فقهية وأخلاقية.

وقد درس بعض الدارسين صلة الوقف بالمعنى على ما تجد في كتاب الدكتور عبدالكريم إبراهيم صالح «الوقف في القرآن الكريم وصلته بالمعنى».

وثمة ظواهر صوتية أخرى يمكن عند تأملها، والصبر عليها أن تؤتي أكلها وثمراتها في مجال عطاء المعنى في الذكر الحكيم.

الاستثمار المعجمي

وبدرجة أكثر اتساعا من المحور السابق، يقوم التوظيف المعجمي بدور فاعل في تحقيق تزاحم المعاني، لا سيما في حرص الكتاب العزيز على استعمال كلمات ذات طاقة دلالية متنوعة، وهو ما جعل ظاهرة المشترك اللغوي، بما هو لفظ دال على أكثر من معنى في اللغة، تبرز في المقاربات العلمية المعاصرة، لا سيما في الذكر الحكيم.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما توقف أمامه المفسرون في تفسير تسمية ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ (القدر:١)، إذ أورد المفسرون معنيين توزعا على أربعة تفصيلات، (كما أورد الماوردي في النكت والعيون):

أ ـ معنى التقدير، ويتفرع عنه:

ـ أن الله سبحانه قدر فيها إنزال الكتاب العزيز.

ـ أن الله سبحانه يقدر فيها أمور السنة.

ب ـ معنى الشرف، ويتفرع عنه:

ـ ليلة مشرفة، لعظم قدرها وجلال خطرها.

ـ شرف الطاعات فيها وعظم قدرها والثواب عليه.

وهذا التنوع في المعنى مأتاه من الاكتناز في معنى الجذر اللغوي (ق د ر)، إذ هو أصل في المعاني التالية:

أ ـ القدر والشرف والمكانة الرفيعة والمنزلة السامية.

ب ـ القضاء والتقدير والتدبير.

ج ـ التضييق، في مثل: قدرنا عليه رزقه، أي ضيقنا عليه.

وهذه المعاني جميعا كانت مرادة، اختيرت هذه الكلمة لاستيعابها جميعا، إذ ليلة القدر، كما رأينا، ليلة شرف، وليلة تقدير، وليلة يضيق الله فيها منافذ النار!

ويتحقق الأمر كذلك بالتنوع في استعمال كلمات تبعا لاختلاف القراءات المتواترة، وهو طريق في الاستثمار المعجمي يحشد المعاني الكثيرة بتنويع استعمال الكلمات في الموضع الواحد، ومن أمثلته المشهورة المتداولة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (الحجرات:٦)..

فقد قرئ: «فتبينوا»، وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف: «فتثبتوا»، وهو أمر مقصود بحكم تواتر القراءتين، لتحقيق المعاني التالية:

أ ـ تثبتوا، تمهلوا وتأنوا.

ب ـ تثبتوا، اطلبوا الدليل الذي يوثق به.

ج ـ تبينوا، استوضحوا، وهو نوع ظهور منبثق من قوة الدليل، ووضوحه وعلانيته.

د ـ الفعلان يتطلبان تضافر الأدلة بدلالة اتفاقهما في صيغة الفعل المضعف أو المشدد.

والتبادل بين الفعلين مقصود، والله أعلم، ليجعل التمهل والتأني وطلب الدليل الموثق به واستفاضة الأمر ووضوحه، دلالات مركزية ظاهرة وواضحة لا يختلف حولها، لخطر القضية، وتعلقها بالدماء والأنفس!

مستوى البنية والتركيب

ظهر من آخر الفقرة السابقة أن التنوع المعجمي، الذي مورده القراءات المتواترة، باب من أبواب تحقيق تزاحم المعاني، بما يعني أن التنوع القرائي كان مستهدفا يرمي إلى تعظيم ما يختزنه الذكر الحكيم في خزينته من معان.

ويتعلق بهذا التنوع القرائي المقصود مظهران آخران هما:

أ ـ التنوع في استعمال الأبنية الصرفية، بمعنى ثبات الجذر اللغوي، مع استعمال متنوع للمشتقات المأخوذة منه، على ما نجده مثلا في: «مالك» و«ملك»، و«قاتل» و«قتل».

ب ـ التنوع في استعمال الطاقة الإعرابية، فيما سميناه في مقال آخر

باسم المثلث القرائي، أي إيراد الكلمة الواحدة في الآية الواحدة وقد قرئت بالحركات الإعرابية المختلفة طلبا لتنوع الناتج الدلالي.

وفي ما يلي أمثلة نكشف فيها عن كيفية توظيف الكتاب العزيز لمظاهر هذا المسلك العزيز فيه:

قراءة «مالك» على وزن فاعل المروية عن عاصم والكسائي وغيرهما،

وقراءة ﴿ مَلِكِ ..﴾ (الفاتحة:٤) على وزن فعل من غير ألف مدية عن ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة وغيرهم. هذا فضلا عن قراءات أخرى لم تتواتر مثل: مليك، وملاك، وملك (بكسر الميم)، وإنما كان ذلك لتحقيق الإحاطة بمعاني الهيمنة والسيطرة المادية والمعنوية جميعا، إذ إن الأمر كما يلي:

أ . مالك: الشديد، والمتملك، من ثبات الملكية ودوامها.

ب. ملك: القادر، ونافذ الأمر، والأعلى شرفا، والعام في التصرف.

ولله مراد أن يؤسس في نفوس المؤمنين به جمعه الأمر وامتلاكه وقدرته ونفاذ أمره وهيمنته، وهو ما حققه تنوع استعمال المشتقين الواردين من جذر لغوي واحد (مع ما روي من قراءات أخرى).

ومن ذلك أيضا التنوع في استعمال تصاريف الجذر اللغوي (ق ت ل)

في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران:١٤٦)، إذ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وغيرهم الفعل «قاتل» بألف، فعلا ماضيا. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وغيرهم الفعل «قُتِلَ» ثلاثيا مبنيا للمجهول، فضلا عمن قرأها: «قُتِّل» بالتشديد والبناء للمجهول في الشاذ الذي لم يتواتر، وهذا التنوع مقصود لتحقيق المعاني التالية:

أ . الحث على القتال، إذ الجهاد سنة الأنبياء ومن صحبهم، وهو المعنى المستفاد من «قاتل».

ب . لا يصح التخلف عن القتال، إذ هو ممتدح لفعل النبي -أي نبي- ومن معه من رجال الجيل الأول.

ج . ضرورة قيام المؤمنين بالدين، وإن قتل النبي -أي نبي- في المعركة، وهو ما يعني تواصل حمل الدين بعد وفاة الأنبياء.

د . حياطة معنى التحذير من التخاذل من الوجوه كافة، سواء من وجه وجود النبي فلا يصح التخاذل عن القتال معه، فجاءت قاتل من أجل هذا، أو من وجه قتل النبي فلا يصح تضييع أمانته، وخذلان دينه ولو كان بولغ في التقتيل، فمن أجل ذلك تنوع استعمال التصاريف المختلفة من الجذر الواحد.

ومن سبيل آخر ينوع القرآن الكريم إعرابيا تحقيقا لتزاحم المعاني، فيجري الإعرابات المتنوعة على الكلمة الواحدة في الآية الواحدة، وهو ما يعرف باسم المثلث القرائي، طلبا للمرادات المختلفة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في إعراب كلمة «أرجلكم» في قوله تعالى: ﴿.. فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ..﴾ (المائدة:٦)، إذ قرئت «أرجلكم» بالطرق الثلاثة التالية:

أ . نصب اللام.

ب . ضم اللام.

ج . كسر اللام.

أما قراءة النصب فكانت عطفا على أيديكم، فيكون الأمر بغسلها من هذا الاعتبار.

وأما قراءة الرفع، فعلى أنها مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: وأرجلكم مغسولة إلى الكعبين.

وأما قراءة الجر، فعطف على رؤوسكم، مع تقدير فعل محذوف قبله، وقد كان ذلك التنوع لتحقيق المعاني التالية:

أولا: تأكيد غسل الرجلين، قراءة الجر والرفع.

ثانيا: التنبيه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، فعطفت على المنصوب بـ «امسحوا» طلبا لتقليل الماء، مع تأمين معنى الغسل بوجود «إلى الكعبين»، إذ لا غاية في المسح، فلما أمن معنى الغسل بدليل إلى الكعبين، بقيت إرادة معنى الاقتصاد في الماء وعدم الإسراف فيه، ولو في الوضوء فعطف على المنصوب بمسح، إذ المسح أقصد في الدلالة بالتوفير والاقتصاد من الغسل، والاقتصاد مقصد معتبر في هذا السياق تشهد له النصوص الحديثية الصريحة، في مثل: «لا تسرف ولو كنت على نهر جار».

وبهذا يكون المعنى قد أحيط من ثلاث جهات، هي:

أ . العناية بغسل الرجلين لمكانتهما، وهو الناطق به إعراب الرفع.

ب . تأكيد غسلهما بعطفهما على المجرور، المأمور بغسله في الآية.

ج . الندب إلى الاقتصاد في الماء بعطفه على دلالة المنصوب بالفعل «امسحوا» مع ضمان معنى الغسل بدليل إلى الكعبين.

ومن هنا فإن هذا الوجه المعجز الجديد الدال على اكتناز الذكر الحكيم بالمعاني الكثيرة وجد طريقه في الظهور والاستعلان بتوظيف هذه الإجراءات اللغوية المتنوعة، صوتيا وصرفيا ونحويا وقرائيا، ولا يزال الكتاب العزيز يعطي مع مداومة النظر فيه، والفحص لأسراره، والتدبر لآياته، ما يبعث على تأكيد قضية إعجازه وإبهاره ليستقر في نفوس الخلق، مع استمرار النظر، إعلانهم بلسان جامع أن صدق الله العظيم، وهو ما يستوجب شكر المنعم على نعمة القرآن الكريم الذي يمثل طريقا عامرا لتحقيق شفاء الإنسانية ورحمتها.